علم نفس قرآنی

المؤمنون أهل حلم وصبر وتواضع وتسامح وحياء .

« يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ».

٦٣ – الفرقان

تعرفهم بطول الصمت وتواصل الفكر وخفض الصوت والبعد عن الهرج والصخب والتلاعن .

وتعرفهم بالتأنى والإتقان والإحسان فيما يعهد إليهم من أعمال ، وتعرفهم بالدماثة ولين الطبع والصدق والوفاء والاعتدال فى الأخذ من كل شىء .

وإذا كان لا بد من اختيار صفة واحدة جامعة لطابع المؤمن لقلت هى : السكينة ، فالسكينة هى الصفة المفردة التى تدل على أن الإنسان استطاع أن يسود مملكته الداخلية ويحكمها ويسوسها .

وهى الصفة المفردة التى تدل على انسجام عناصر النفس والتوافق بين متناقضاتها وانقيادها فى خضوع وسلاسة لصاحبها وهو أمر لا يوهب إلا لمؤمن .

وأنت تقرأ هذه السكينة فى هدوء صفحة الوجه . . ليس هدوء السطح بل هدوء العمق . . هدوء الباطن . . وليس هدوء الخواء ولا سكون

البلادة ، وإنما هدوء التركيز والصفاء واجتماع الهمة ووضوح الرؤية . . وكأنما الذى تراه أمامك يضم البحر بين جنبيه .

والبحر ساكن ولكنه جياش يطرح اللآلئ والأصداف والمراجين من أعماقه لحظة بعد لحظة ، فهو غنى الغنى اللانهائى .

وهذه خاصية المؤمن . . ذلك الهدوء المشع الثرى . . لماذا . . ؟ ؟ ! !

لأن علاقة المؤمن بما حوله علاقة متميزة مختلفة . . علاقته بالأمس والغد . . وعلاقته بالموت . . وعلاقته بالناس . . وعلاقته بعمله ونظرته للأخلاق .

فالأخلاق بالمعنى الواقعى وبالمعنى الفلسفى هى أن تشبع رغباتك بما لا يتعارض مع حق الآخرين فى إشباع رغباتهم هم أيضاً ، فهى مفهوم مادى اجتماعى بالدرجة الأولى وهدفها حسن توزيع اللذات .

أما الأخلاق بالمعنى الدينى فهى بالعكس أن تقمع رغباتك وتخضع نفسك وتخالف هواك وتحكم شهواتك لتتحقق برتبتك ومنزلتك العظيمة كخليفة عن الله ووارث للكون المسخر من أجلك . . فأنت لا تستحق هذه الخلافة والسيادة على العالم إلا إذا استطعت أولا أن تسود نفسك وتحكم مملكتك الداخلية . . ومفهوم الأخلاق هنا فردى وهدفه بلوغ الفرد درجة كماله وإن كانت هناك ثمرة اجتماعية فإنها تأتى بالتبعية . . فالمجتمع الذى يتألف من مثل هؤلاء الأفراد لابد أن يسوده الوئام والسلام والمحبة . .

والأخلاق بهذا المعنى خروج من عبودية النفس إلى مرتبة عليا هى الجمعية مع الرب . . خروج من الجزء إلى الكل . . من النسبى إلى المطلق من الرغبة فى شىء مادى إلى الرغبة فى حضرة الإله حيث يجب أن

تتطلع كل العيون . . وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تم تصحيح وتكميل بصر العين فأصبحت ترى كل شيء بحقيقة حجمه ونسبته لا تحجبها لذة دنيوية عن رؤية الكمالات الإلهية .

ولهذا تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها وتخضعها . . ولا تبدأ بالتسليم لها وبإشباعها كما فى الأخلاق الشائعة ، فهى ليست دعوة إلى حسن توزيع اللذات وإنما هى دعوة إلى الخروج من أسر الملذات ، وهكذا تفترق النظرتان تماماً ، وتؤدى كل منهما إلى إنسان مختلف .

فالإنسان المادى يستهدف النزوة واللذة الفورية والمقابل المادى العاجل (لأنه لا يعتقد فى وجود شيء وراء الحياة الدنيوية) ، وهو لهذا يجرى وراء « اللحظة » ويتشبث « بالآن » ، ولكن اللحظة متفلتة « والآن » هارب والفوت والحسرة تلاحقانه فى أعقاب كل خطوة يخطوها وهو متروك دائماً وفى حلقه غصة وفى قلبه ندم وكلما أشبع شهوته ازدادت جوعاً . . وهو يراهن كل يوم بلا ضمان وبلا رصيد فهو محكوم عليه بالموت لا يعرف متى وكيف وأين ، فهو يعيش فى قلق وتوتر مشتت القلب متوزع الهمة بين الرغبات لا يعرف للسكينة طعماً حتى يدهمه الموت رغم أنفه .

أما الإنسان المؤمن فهو تركيب نفسى مختلف وأخلاقية مختلفة ورؤية مختلفة . . فهو يرى أن اللذات الدنيوية زائلة ولا تساوى شيئاً وأنها مجرد امتحان إلى منازل ودرجات وراءها وأن الدنيا مجرد عبور إلى تلك المنازل والدرجات الباقية . . وأن الدنيا كالخيال وأن الله هو الضمان الوحيد فى رحلة الدنيا والآخرة . . وأنه لا حاكم ولا مقدر سواه . . لو اجتمع الناس على أن يضروه لما استطاعوا أن يضروه إلا بشيء كتبه الله عليه ،

وإن اجتمعوا على أن ينفعوه لما استطاعوا أن ينفعوه إلا بشيء كتبه الله عليه . . ولهذا فهو لا يفرح لكسب ولا ييأس على خسران ، وإذا دهمه ما يكره . . قال فى نفسه :

« . . وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » ٢١٦ – البقرة

والله عنده حكيم عادل رحيم لا يقضى بالشر إلا بسبب ولحكمة ولفائدة أو استحقاق عادل .

وهو يقاتل ثابت القدم أمام الموت ، وهو يتغنى :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » .

٧٨ – النساء

« قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ». ٨ – الجمعة

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً » . ١٤٥–آل عمران

وهو لا يحسد أحداً ولا يغبط أحداً ، بل هو مشفق على الناس مما هم فيه من غفلة يقول له قلبه :

«لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلاَدِ . . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ». ١٩٦ – ١٩٧ – آل عمران

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فى الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَّ يَشْعُرُونَ » . ٥٥ – ٥٦ – المؤمنون

« إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ». ١٧٨ – آل عمران

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فى الأَرْضِ وَلَا فى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فى كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . ٢٢–٢٣–الحديد

« قُل لَّنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ». ٥١ – التوبة

وثمرة تلك الآيات عند المؤمن بها هى السكينة والهدوء النفسى وتطامن البال والثقة فى حكمة الله وعدله ورحمته وتصريفه .

ومثل هذا المؤمن كلما ترك شهوة من شهواته وجد عوضاً لها حلاوة فى قلبه مما يلقى من التحرر الداخلى من أغلال نفسه ومما يجد من النور فى بصيرته .

وهو يترك السعى إلى الحظوظ للسعى إلى الحقوق ويترك الدعاوى إلى الأوامر .

ويترك أهواء النفس إلى وجه الحق .

ويكف عن التلهف والحركة وراء الأغراض والمناصب والرياسات والمغانم ويسكن إلى جنب الله . . وهل بعد الله مغنم .

وهو مدرك بأن الجمعية مع الله لا يدانيها كسب فإلى جانب اللا نهاية تصبح جمعية الأعداد صفراً .

ومن صفات هذا المؤمن العامل لوجه الله أنه ناهض بالهمة على الدوام لا يفتر ولا يكسل ولا يتواكل بينما يفتر من يعمل للأجر ويفتر من يعمل للخوف (يخدع الأول نفسه بالاستكفاء ويخدع الثانى نفسه بالتمنى) أما القاصد وجه ربه فإنه لا يفتر لأنه لم يربط جهاده بأجر وهو لا يكسل متواكلا على مغفرة لأنه لا يتحرك بالخوف من عقاب وإنما هو عبد عاشق محب متطوع يعمل وهو يغنى لأن العمل عنده سعادة ولهذا لا تجده أبداً متبرماً ولا متسخطاً وإنما هو دائماً طلق الوجه مشرق البسمة متفائل حماد لربه فى جميع الحالات لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصاً ولا قصوراً .

وهذه التركيبة النفسية النادرة هى ثمرة الإيمان بالقرآن وهى ثمرة التوحيد .

والتوحيد يجمع عناصر النفس ويوحد اتجاه المشاعر نحو مصدر واحد للتلقى فيؤدى بذلك إلى أثر تركيبى بنائى فى الشخصية بعكس تعدد الآلهة وتعدد مصادر الخوف والنفع والضرر فإنه يؤدى إلى توزع المشاعر وانقسام النفس وتشتت الانتباه إلى عديد من الجهات ، ويؤدى بذلك إلى تفكيك رباط الشخصية .

والقارئ للقرآن الكريم يخرج بعلم نفس قرآنى متميز بديع ومتفرد فى تربيته للمسلم .

وليس عجيباً أن القرآن أقام حضارة وصنع تاريخاً . . فإنه قبل ذلك قد أقام إنساناً وربى نفساً بديعة سوية متفردة فى تكاملها وأشرق عليها بسكينة لا مثيل لها .

ومثل تلك التربية الفذة تشهد للقرآن بأنه خرج من المشكاة الإلهية .

فلا مرب مثل الرب .

وقد ظهرت محاولات عديدة لفهم النفس فهماً جديداً مؤسساً على القرآن والسنة ، آخرها وأهمها كتاب الدكتور حسن الشرقاوى « نحو علم نفس إسلامى » وهو نظرة نقدية شاملة لعلم النفس الحديث ومحاولة للخروج بعلم نفس إسلامى جديد .

ويعرض الكتاب فى أمانة وجهتى نظر العلم والدين فى ذلك اللغز الذى اسمه النفس ويدعو القارئ ليفكر معه خطوة بخطوة ويأخذ بيده برفق إلى الحقيقة .

إن علماء النفس لا ينظرون إلى النفس إلا من خلال العيوب والأمراض والآفات والعلل . . ولا يفتشون إلا فى الانحرافات والتشوهات والعقد ولا يقدمون لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية الصحيحة . . والمنبع

الوحيد للسلوك عندهم هو إشباع شهوة . . والمرجع الرئيسى الذى يفسر به فرويد جميع التصرفات هو عقدة أوديب وعقدة الكترا . . وهى شهوة الطفل فى أن يجامع أمه وشهوة البنت فى أن تجامع أباها . . وهى هلوسة سمعها من مرضاه الهستيريين فجعل منها تهمة عامة ألصقها بالكل ، ومن هنا كان الإحساس بالذنب عند فرويد مرضاً . . والتوبة نكوصاً . . والندم تعقيداً . . والصبر على المكاره برودا . . وقمع الشهوات كبتاً له عواقبه الوخيمة .

بينما نرى الدين يقف على النقيض من هذه النظرة . . فيعلمنا أن قمع الشهوات هو شاهد على سلامة النفس واقتدارها وأن الإحساس بالذنب علامة صحة وأن التوبة موقف علم والندم موقف علم تدل جميعها على فطرة سوية أدركت الله وعرفت أنه دائماً مع الحق والعدل والخير .

ولا يرى الدين أن النفس محض فجور بل يصفها بأنها قابلة للفجور وللتقوى وأن الله ألهمها فجورها وتقواها معاً فهى تستطيع أن ترتقى فى معراج نورانى نحو الله أو أن تنهابط سفلياً فى درك الشهوات . . وهى فى ذلك مخيرة . . وكل إنسان يتصرف على شاكلته .

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » . ٨٤ – الاسراء

* ويتوسع فرويد توسعاً معيباً فى حكاية الجنس والطاقة الجنسية Libido واللذة الجنسية ، ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو كلام غير مفهوم ، فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف جميع أجهزته ، وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة) .

كما يتصور أن الصبى يحبس البراز فى شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد) .

كما يتصور كل ما هو مستدير فى الحلم رمزاً لعضو المرأة التناسلى (مثل الكهف والدائرة والعلبة والخاتم والحلق والزجاجة) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزاً لقضيب الرجل (مثل العصا والثعبان والقلم والمئذنة والبرج والسيف والمظلة) وكل حركة فى الحلم هى رمز للعملية الجنسية (كالجرى والتسلق والسباحة وركوب الدراجة) .

ثم هو يدمج كل أنواع الحب حتى حب الوالدين وحب النفس فى هذه الحلقة الجنسية المفرغة ، فحب الأم (عقدة أوديب) وحب الأب (عقدة الكترا) وحب النفس (نرجسية) . . وكأنما هى لعنة تمازج كل فعل . . فلا براءة فى أى شىء . . ولا طهارة فى أى خاطر أو أى فكرة .

وهى مبالغات أقل ما يقال فيها إن صاحبها مريض بهوس جنسى .

* ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسى الحسى الشهوانى ، فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوتة وهى تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد الذى يريح النفس من أشواقها الملحة فتسترسل فى نومها .

وفرويد وأصحابه لا يرون بذلك إلا نوعاً واحداً من الأحلام وجانباً واحداً من النفس هو الجانب المادى الحيوانى .

أما القرآن ، فيعلمنا أن هناك نوعين من الأحلام . . نوعاً يطلق عليه « أضغاث الأحلام » وهو حديث النفس الأمارة بشهواتها ورغباتها أو حديث الشياطين إلى تلك النفس أثناء النوم . . وهو ما اشتغل فرويد بتفسيره .

ثم نوع آخر من الأحلام هو الرؤى التى تأتى إلى النفس . . من

الملإ الأعلى . . وتكون حديثاً من الله إلى نفس النائم أو حديثاً من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس . . ومثال ذلك الرؤى الصادقة التى تتحقق بحذافيرها ونصها .

ولا مكان لهذه الرؤيا عند فرويد . . ونظريته تعجز تماماً عن تفسيرها ، مع أنها خبرة عادية عاشها كل منا وجرب طرفاً منها . .

كما أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هى مسألة تهدم الفكر المادى من أساسه سواء الفرويدى منه أو الماركسى لأنها إثبات صريح يؤكد سبق الفكر على المادة ، ويميز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام ويفصل بينهما .

يقول فرعون :

« يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فى رُؤْيَاىَ » . ٤٣ – يوسف

« قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَـا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ » . ٤٤ – يوسف

فهناك إذن أضغاث ورؤى .

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسة الشهوانية ، ولهذا يرى أن السعادة والراحة فى إشباع تلك الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة فى مخالفتها وقمعها والقبض على زمامها والتسلق عليها عوداً إلى الوطن الأول . . إلى الله الذى منه جاءت كل النفوس وإليه تعود .

والحزن الحق فى الإسلام هو نتيجة فراق هذا الوطن والانغماس فى ظلمة الدنيا . .

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها

* وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره مرضاً ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره موضوعاً مؤلماً أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية فى اللاشعور . . والطبيب النفسى يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو التنويم المغناطيسى أو بملاحظة المريض فى أثناء تداعى خواطره .

ولكن الدين ينظر إلى الموضوع فى إطار أوسع وأشمل ، هو إطار العلاقة بالله ، فمن كان قريباً من ربه ذاكراً له على الدوام كانت قدراته دائماً مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئاً ولا يغيب عن باله شيء لأنه فى دائرة النور . . أما البعد عن الله فيدخل صاحبه فى دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة .

« نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ». ١٩ – الحشر

وهؤلاء هم الذين يتخبطون فى متاهات النسيان والحيرة والضياع .

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس للشمول والنظرة الواسعة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى أنه نفث من اللاشعور وأنه حديث النفس إلى النفس ولا يتصور أن تلك النفس تحيا فى محيط آخر خفى وأنها يمكن أن تكون محلا لمخاطبة الملائكة ووسوسة الشياطين أو مكالمة الرب جل جلاله .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسى فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية . . ولا يتصور أن العذاب الدنيوى يمكن أن يكون ابتلاء وامتحاناً من الخالق الذى خلق . . كما يفعل الحداد

بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به فى الماء البارد ليزداد صلابة . . أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب وما فيها من نحاس وما فيها من خبث وتراب .

ويظل علم النفس سجيناً لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية لكل شىء بشكل ينتهى به إلى الخطأ فى جميع أحكامه . . فهو مثل الأعمى الذى اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل .

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل فى نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه فى تحليل مدى صدق وإخلاص هذا الحافز ودون أن يتخطى هدف الفعل ويسأل ماذا يريد به صاحبه . . هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند الناس . . أو هو يعمل خالصاً مخلصاً لوجه الله . .

والفرق كبير وهائل بين العملين . وهو أيضاً كبير وهائل بين النفسين .

وفصل الأخلاق عن أهدافها هو فى النهاية فصل لها عن منبعها الأصيل الذى هو الدين . . فالدين وحده هو مصدر الأخلاق . . والرحمة والعلم والرأفة والمودة والكرم هى من الله . . فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرءوف الحليم ، كما تقول لنا أسماؤه الحسنى ، وهو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها .

ولهذا يختلف علم النفس والدين فى علاج الأمراض النفسية .

فلا يرى علم النفس إمكاناً لتبديل النفس أو تغييرها جوهرياً لأن النفس تأخذ شكلها النهائى فى السنوات الخمس الأولى من الطفولة . . ولا يبقى للطبيب النفسى دور سوى إخراج المكبوت إلى الوعى . . أو فتح

نوافذ للتنفيس والتعبير وتخفيف الغليان الداخلى . . وبهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسى إلى العلاج بالتنويم المغناطيسى أو العلاج بالتحليل أو العلاج بالإيحاء أو بالتنفيس والتعبير والفن واللعب أو العلاج بالاستغراق فى عمل آلى .

وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئاً ، فكلها تقبل وجود الدمل النفسى على حاله ثم تقول للمريض . . اصرخ أو غن أو ارقص لتنفس عن آلامك . . أو تضع يده على الدمل وتقول له . . هنا الدمل . . وهذا كل جهدهم .

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهرياً ويقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلـهية ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة . . ويكون ذلك على مراحل . . أولاها تخلية النفس من عاداتها المذمومة وذلك بالاعتراف بالذنوب والعيوب وإخراج هذه العيوب إلى النور . . كما قال موسى لربه بعد قتل المصرى خطأ :

« رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ». ١٦ – القصص

وكما نادى يونس فى الظلمات :

« لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ». ٨٧ – الأنبياء

والمرحلة الثانية هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر .

والمرحلة الثالثة هى مجاهدة الميول النفسية المريضة بأضدادها ، وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق وإكراه النفس الشهوانية

على التعفف ودفع النفس الأنانية إلى البذل والتضحية وحث النفس المختالة المزهوة على التواضع والانكسار واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل . . وبمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل . . وهو صراط الحكمة . . وهو حظ الكاملين من البشر .

ولا تنجح تلك الرياضة دون طلب المدد والعون من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعاً وسجوداً فى توحيد كامل (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة والاسترسال معه . . لا تريد لنفسك إلا ما يريد لك ربك ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلبه هو لك) وهنا تحدث المعجزة . . فيتبدل القلق سكينة والفزع طمأنينة والخسة الشهوانية عفة وطهارة . . والنواقص النفسية كمالات .

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى « الذكر » . . ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل . . واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطول الوقت فى كل قول وفعل .

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ويربط النفس بمنبعها ويرد الصنعة إلى صانعها . . حيث هو الأعلم بعيوبها والأقدر على علاجها .

« ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ». ٦٠ – غافر

« فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ». ١٥٢ – البقرة

فيعود النور ليغمر ظلام النفس ويحل العمار مكان الخراب وتتجلى الكمالات الصفاتية الإلهية على قلب العبد الخاشع .

وبينما يرى فرويد الطيبة تخاذلا وسلبية وينصح مريضه قائلا له : كل وإلا فأنت مأكول .

نرى نحن الطيبة قوة وإيجابية . . ونأمر بالصفح :

« فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ». ٨٥ – الحجر

« فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ». ١٠٩ – البقرة

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ». ٢٣٧ – البقـــرة

وبينما يختار فرويد من الأعمال ما يساعد على تفريغ وتنفيس الغليان النفسى . . نشترط نحن العمل الصالح .

وبينما يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة ، وبينما يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية ، نقول نحن إن الإنسان فطر حرًا مختاراً بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية .

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس الحديث بوجه عام هو تصوره للإنسان تصوراً آليًا حيوانيًا حسيًا فسيولوجيًا .

وهو عين ما فعله كارل ماركس حينما تصور أن التاريخ عربة تحركها المصالح المادية والقوى المادية وحدها . . وأن حركة التاريخ هى دائماً ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه فى الكلام عن الصراع الطبقى .

وهذا التصور المحدود والأفق الضيق المسدود هو الذى أدى بالاثنين إلى اعتساف الفروض والتخريجات . . وهو الذى أدى بالاثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ . . وهو الذى انتهى بالاثنين إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين .

وقد ظهر فشل الطب النفسى الحديث من التتبع الإحصائى للحالات التى تم علاجها نفسياً . . فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى المصابين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الإطلاق . . فمن يشفى منهم حاله كحال مريض الإنفلونزا مصيره إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون العلاج .

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسانيين مرضى أكثر من مرضاهم وفى حاجة إلى تحليل .

وأخيراً رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمخدرات والمنومات . . وهو اعتراف بالعجز والفشل . . وهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها .

وكيف لا تنتهى الفرويدية إلى الفشل وهى القائلة باستحالة تغيير النفس وتبديلها . . وبأن النفس تتشكل فى سنوات الطفولة الأولى . ثم تصبح قدراً لصاحبها لا خلاص منها .

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية .

لقد انتهى علم النفس الحديث إلى الفشل لأن منطلقاته معظمها خاطئ ، وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علماً كما أن الماركسية لم تكن قط علماً . . وإنما هى مجموعة أفكار ظنية .

كما أن علم النفس الحديث هو الآخر مجموعة أفكار ظنية وهذا بعض ما أورثتنا الحضارة المادية من ظنون وأوهام .

ومن تلك الظنون والأوهام ذلك الذى يسمونه علم النفس التجريبى الذى يجرى تجاربه على الإنسان كما يجريها على الفئران والأرانب والكلاب ويتصور النفس الإنسانية مجموعة ردود أفعال فسيولوجية مادية ولا أكثر .

وهو تصور خاطئ فالنفس الإنسانية «ذات» قبل كل شيء ولا يمكن إحالتها إلى موضوع مجرد. وهي كالحياة إذا أعملت فيها مبضع التشريح ماتت في يدك . .

والنفس دائماً تستخفي على النظرة التحليلية وتتنكر بما تطرح في الظاهر من ردود أفعال سلوكية وهي لا تعطي سرها أبداً حتى صاحبها إذا بدأ يتدبرها كموضوع لأنها ليست موضوعاً بل هي في جوهرها ذات بكر إذا فضضت بكارتها وهتكت استسرارها وحاولت أن تقتحمها بالنظرة الموضوعية استعصت عليك وتفلتت منك بمجموعة من البدائل السلوكية الخادعة وتحولت إلى شيء آخر . . ولم تعد « هي » . .

ويظل دائماً الفارق بين ماترى منها في الظاهر ومن حقيقتها كالفارق الهائل بين الجسد الظاهر والروح التي تسكنه . . وأنت لن تصل أبداً إلى كنه الروح بتشريح الجسد . . وإنما أنت على أحسن الفروض سوف تفهم الجسد أكثر فأكثر ولكنك تظل دائماً بعيداً كل البعد عن إدراك سر الروح ولغزها .

وخطأ أصحابنا الماديين أنهم يتعاملون والنفس الإنسانية على أنها مادة هي الأخرى وجسد يمكن اقتحامه بالتشريح والتجربة . . وهم يفعلون هذا عن إيمان بأنه لا روح هناك ولا ذات ولا نفس . . وإنما مجموعة مركبات كيمياوية اسمها الإنسان وتلك هي خطيئة الحضارة المادية .

وواجبنا أن نعرض هذه الحضارة على الفرز . .

ولقد عشنا مئات السنين عالة على الغرب ولكننا اليوم نستطيع أن نعطي الغرب ونعطي الشرق وما أكثر ما يستطيع الإسلام أن يعطي هذا العصر الخرب .